الإنسان وما بعد الإنسانوية في روايات ملف المستقبل

عبير أحمد الغامدي

محاضرة في جامعة جدة – طالبة دكتوراه في جامعة الملك عبدالعزيز

جامعة الملك عبد العزيز

المملكة العربية السعودية

السعودية- جدة

البريد الإلكتروني: Aalghamdi7@uj.edu.sa

الاستلام	٢٠٢٣/١/4	المراجعة	٢٠٢٣/٢/15	النشر	٢٠٢٣/٤/٣٠

الملخص:

تناولت هذه الدراسة نماذج من روايات ملف المستقبل لنبيل فاروق من منظور فلسفة مابعد الإنسانوية، التي اتخذت من تطورات العلم والتكنولوجيا مرتكزًا في تحدي مفهوم الإنسان ومركزيته في الكون، وعلاقته بغيره من الكائنات الأخرى في روايات الخيال العلمي. وتهدف الدراسة لاستكشاف مدى علاقة روايات الخيال العلمي بالواقع الاجتماعي والثقافي والفلسفي وانعكاس فلسفة ما بعد الإنسانوية على السرد وعلى مفهوم الإنسان نفسه. ولتحقيق هذا الهدف، عرضت الدراسة لمفهوم الإنسان في علاقته بغير الإنساني، بالإضافة لعلاقته بالمجتمع، وما نتج عن ذلك من تبديل الهويات وظهور هويات جديدة في هذه الروايات، معتمدة على منهج التحليل الثقافي .

خلصت الدراسة إلى أن روايات ملف المستقبل عكست مفاهيم ما بعد الإنسانوية. ولا تختلف في ذلك عن مثيلاتها من روايات الخيال العلمي الغربية والعربية التي سبقتها في هذا المجال، حيث تناولت موضوعات الخيال العلمي التقليدية المعروفة في هذا النوع من الأدب، وداخل هذه الموضوعات تظهر ملامح ما بعد الإنسانوية، في صورة إلماحات غير مباشرة، تحرص على إبراز البعد الإنساني والأخلاقي في مجتمع المستقبل، كما تحرص على تأكيد الريادة العلمية والثقافية (العربية). وقد أثّر البعد الأخلاقي العربي الذي يوجه سلسلة ملف المستقبل، فلم تتعمّق في مناقشة أو تحليل موضوعات ذات حساسية لدى القارئ العربي، مثل الدين والهوية القضايا الجندرية، لكنها لامست ما يتعلّق بهذه الموضوعات من قضايا تبدّل هوية الإنسان وتشويهها، وتأثير الإنسان على تغيّر طبيعة المناخ والأرض.

الكلمات المفتاحية :

مابعد الإنسانوية، صراع الإنسان والآلة، مفاهيم الإنسان، سايبورغ.

Human and Posthumanism in the Future File novels

Abeer Ahmad Alghamdi

PhD student at King Abdulaziz University- Lecturer at the Faculty of Languages and Translation - Department of Arabic Language

King Abdulaziz University

Jeddah-KSA

Email: Aalghamdi7@uj.edu.sa

Received	4/1/2023	Revised	15/2/2023	Published	30/4/2023

Abstract:

This study examines models of Nabil Farouk's science fiction novels from the perspective of post-humanist philosophy. The novels take the developments in science and technology as a basis for challenging the concept of "human" and its anthropocentricity in the universe. In addition to highlighting human's relationship with non-humans in science fiction novels, the research aims to examine how relevant science fiction novels are to social, cultural, and philosophical realities while also investigating the effects of posthumanism on both the narrative and concept of "human" itself. To achieve this goal, the study presented the concept of "human" in its relation to the non-human, in addition to its relation to society, the resulting change of identities, and the emergence of new identities in these novels, relying on the method of cultural analysis.

The research concluded that "Malaf Al Mostakbal" novels reflected the philosophy of posthumanism. Moreover, these novels are not so different from their Western and Arabic fictional in terms of the subject matter and themes typically used within the genre. Posthumanism features appear throughout these themes in the form of indirect implications, making sure to highlight the ethical and humanitarian aspects of the future, as well as (Arab) scientific and cultural leadership. Additionally, the ethical values of the Arab world had a clear impact in directing "Malaf Al Mostakbal", that is, the avoidance of delving into discussing certain topics that are deemed sensitive to Arab readers, such as religion and gender. However, it touches on issues related to these topics as well as the identity of "human" and the impact humans had in shaping the Earth and causing climate change.

Key words:

Posthumanism, The human-machine conflict, Human concepts, Cyborg.

المقدمة:

شهد القرنان العشرون والحادي والعشرون إنتاجًا كبيرًا للروايات التي تراجع مفهوم الإنسان، وتجسد أفكار ما بعد الإنسانوية. وهي العلاقة التي أدت إلى توسيع مجال اهتمام الرواية من الإنساني إلى الاهتمام بذوات وموضوعات أخرى لا إنسانية، من أبرزها: الأزمات البيئية، تهديدات الانقراض، وحقوق الإنسان والحيوان، والذكاء الاصطناعي وتأثيره على حياة البشر، بالإضافة إلى قضايا النوع والجندر والتعدد الثقافي، على النحو الذي عده الباحثون مثل لوك هورتل مجازًا ثقافيًا يعيد صياغة الأفكار والصور الخيالية للموضوع الإنساني[١].

ولقد كانت روايات الخيال العلمي في مقدمة الروايات التي ناقشت وعكست مفاهيم ما بعد الإنسانوية، ومنها سلسلة روايات ملف المستقبل التي كانت واحدة من السلاسل البارزة التي ظهرت في أواخر القرن العشرين، وخاطبت الشباب على نحو خاص، مستلهمة روايات الخيال العلمي الأجنبية والعربية التي استكشفت المستقبل من خلال موضوعات العلم وتطورات التكنولوجيا التي تعد بتغيير مستقبل الإنسان، وتؤثّر بابتكاراتها المستحدثة على مفاهيم الإنسان ومركزيّته في الكون، وعلاقته بالكائنات الأخرى وبالبيئة التي يعيش في محيطها.

وهي أسباب اختيار ملف المستقبل بعدّه نموذجًا لبحث أفكار ما بعد الإنسانوية وتجلياتها في الرواية العربية، أي من حيث كون سلسلة ملف المستقبل واحدة من الروايات القليلة في الأدب العربي، والتي اتخذت من المستقبل وتأثير التكنولوجيا فيها على حياة الإنسان موضوعًا تبرز فيه أفكار وموضوعات ما بعد الإنسانوية، ويزيد من أهمية هذه الأسباب حاجة الأدب العربي إلى تسليط الضوء على مثل هذه السلاسل الخاصة، لاستكشاف رؤيتها الخاصة لمستقبل الشباب كونها أيضا موجهة إلى الشباب، وتخطابه بلغته المعاصرة.

وكون ملف المستقبل بطبيعته (سلسلة) روايات مترابطة، تتكامل في موضوعها، وتتداخل أحداثها، ويحيل بعضها إلى بعض، في إطار تركيزها على أفكار ما بعد الإنسانوية، فقد كان من الضروري اختيار نماذج منها للدراسة، للوقوف عند حدودها وتتبع تجلياتها من خلال موضوعاتها ومواقفها الأساسية في مثل هذه الروايات. وقد اخترت منها روايات: اختفاء صاروخ، العقول المعدنية، أشعة الموت، الخارقون، الموت الأزرق، السماء المظلمة، من وراء النجوم، نصف آلي على الترتيب.

وهي مجموعة روايات جسّدت أفكار ما بعد الإنسانوية من خلال موضوعاتها التي ناقشت تطورات الذكاء الاصطناعي وظهور الآلة المفكرة التي تنافس الإنسان بحضورها، كما ناقشت تدخلات الإنسان لتعظيم قوته من خلال التلاعب بالجينات الوراثية، وكذلك ناقشت موقف الإنسان من قضايا النوع والبيئة، في ظل رؤية عربية لهذه القضايا.

ومن ثم، تسعى هذه الدراسة لتستكشف حالة إنسان ما بعد الإنسانوية، على النحو الذي عرضته روايات ملف المستقبل والمواقف التي تمثّلت في هذه الروايات بدراسة نماذج مختارة منها. وهو موضوع يكتسب أهميته من زيادة الاهتمام بما بعد الإنسانوية بوصفها تيارًا فكريًا وفلسفيًا معاصرًا، انبثق عن تجليات ما بعد الحداثة، وتزيد أهمية الموضوع من عدم تركيز الباحثين على روايات الخيال

العلمي الموجهة لفئة الشباب. وبالتالي، فإن دراسة روايات هذه السلسلة يعكس الصورة العامة للمستقبل الإنساني، في ظل تطورات العلم والتكنولوجيا وتجلياتها على الحياة المعاصرة، بالإضافة إلى موقف الإنسان العربي المعاصر من قضايا الحداثة وما بعدها، من منظور فلسفة ما بعد الإنسانوية التي تتخذ مواقف خاصة من مركزية الإنسان وهويّته وبيئته بشكل عام.

تفترض الدراسة أن قيم وحدود ما بعد الإنسانوية تركت آثارها في روايات الخيال العلمي المعاصرة، وبالتالي فإن السؤال الذي تعمل هذه الدراسة على إجابته: كيف انعكست حالة الإنسان في روايات ملف المستقبل باعتبارها واحدة من روايات الخيال العلمي العربية المعاصرة في ظل اتجاهات ما بعد الإنسانوية في الفكر الفلسفي المعاصر؟ ولتحقيق هذا الهدف، عرضت الدراسة لجذور ما بعد الإنسانوية ولاتجاهاتها في الفكر الفلسفي المعاصر، تمهيدا لتناول تجلياتها في روايات ملف المستقبل، من خلال قضايا الإنساني وغير الإنساني، وطبيعة الإنسان والمجتمع في مستقبل مابعد الإنسانوية، وتبدّل الهويات وماحدث لها من تشويه، وعلاقة هذا التبدّل في وعي الإنساني بالطبيعي والصناعي في بنية المجتمع وحياته. وهو التناول الذي اعتمدت الدراسة فيه على منهج التحليل الثقافي لتحقيق هدفها كونه المنهج الذي يستطيع تتبّع الظاهرة الثقافية وتحليل خطابها الفني في مجال محدد، يرتبط بسياقات عدة مختلفة[٢].

مابعد الانسانوية والانسان

أُستخدم مصطلح "ما بعد الإنسانوية" (Posthumanism) لأول مرة من قبل الناقد الأدبي الأمريكي إيهاب حسن في عمله بروميثيوس كمؤدٍ: نحو ثقافة ما بعد الإنسانوية في (١٩٧٧)[٣]. ثم برز نتيجة المناقشات حول النصوص الثقافية المختلفة، وفي مجالات عدة؛ خاصة روايات الخيال العلمي التي تطور الاهتمام بتحليلها في علاقتها بمنظور ما بعد الإنسانوية، لتعكس جدالات الوضع السياسي للديموقراطية[٤]، خاصة لدى فوكو، على خلفية إعلانه موت الإنسان، في ظل النقاشات الحادة حول المستقبل السياسي للديموقراطيات الراديكالية، وهو "مستوحى من مقال "دونا هاراوي" "بيان سايبورغ (١٩٩١) وكتاب "كاثرين هيلز": كيف أصبحنا ما بعد إنسانيين: الأجسام الافتراضية في علم التحكم الآلي والأدب والمعلوماتية (١٩٩٩)[٥] وكل ذلك ضمن مناقشات تيارات ما بعد الإنسانوية النسوية لوضع الإنسان، ولحقوق الأقليات وحقوق المرأة، بل وحتى حقوق الحيوان، في إطار طائفة واسعة من القضايا التي تشمل البيئة والمجتمع والسياسة والاقتصاد والوضع الإنساني المستقبلي بوجه عام، وعلى نحو ما يظهر خاصة في اتجاهات ما بعد الإنسانوية.

وإذا كان الأصل في مصطلح ما بعد الإنسانوية (Posthumanism) أنه يرتبط بالتنظير الفلسفي لفكرة ما بعد الإنسان، فإن مصطلح ما بعد الإنسانوية المشتق منه يرتبط بالممارسة العملية لتحليل النصوص الثقافية والفلسفية، على نحو ما يشير معجم أكسفورد في تعريفه من حيث أنه منظور نقدي يترجم فلسفة ما بعد الإنسانوية، ويركز على رفض فكرة أن البشر مخلوقات عاقلة يمكن تأطيرها، ويرى بدلا من ذلك أن التقدم التكنولوجي حوّل الإنسان إلى آلة، والمجتمع الإنساني إلى مجتمع آلي[٦].

وفي قاموس (Posthuman Glossary) وهو من أهم المراجع في عرض مصطلحات مابعد الإنسان والإنسانوية، تناقش فرانشيسكا فيراندو مفهوم مابعد الإنسانوية وتعتبره عملية تفكيك مركزية الإنسان والتفكير بعيداً عن الثنائيات التي تقصي

العناصر الأخرى في الكون[٧]، فإعادة النظر في مفهوم الإنسان الذي فصل عن غيره من الكائنات في الكون هو مطلب هذا التيار، مما يترتب عليه الدعوة لمراجعة الأسس الابتسمولوجية التي قامت عليها العلوم الإنسانية.

وعلى هذا النحو تعود جذور ما بعد الإنسانوية وممارستها إلى الموجة الأولى لما بعد الحداثة، ولكنها اكتسبت أبعادا مختلفة مع نقاد النسوية وما بعد الاستعمار في تسعينيات القرن الماضي، وهو الأمر الذي أعطاها بعدًا نقديًا، إلى أن دخلت الدراسات الثقافية على خط مناقشة الموضوع فاكتسبت ما بعد الإنسانوية بعدا ثقافيا عُرف فيما بعد بما بعد بالإنسانوية الثقافية، ثم تطورت مع نهاية القرن العشرين لتأخذ بعدا فلسفيا؛ يناقش قضايا الوجود، ويسائل فرضيات الإنسان التقليدية، من خلال بعديها النقدي والثقافي[٨].

وبناء على هذه العلاقة بين ما بعد الإنسانوية ومناهج ما بعد الحداثة وتياراتها الفكرية، يبرز في اتجاهات ما بعد الإنسانوية ثلاثة اتجاهات: الأول– ما بعد الإنسانوية النقدية، والثاني– ما بعد الإنسانوية الكائنية، والثالث– ما بعد الإنسانوية التقانية[٩]. وإن يكن هناك من الباحثين من يرى أنهما اتجاهان فحسب، أو نزعتان تميّزان ما بعد الإنسانوية، الأولى– النزعة التقنية أو الآلية لما بعد الإنسانوية، والثانية– النزعة الكائنية لما بعد الإنسانوية[١٠] وهذه الاتجاهات لا يمكن الفصل بينها كونها متداخلة ومعقدة[١١].

وهذا ما يجعل من ما بعد الإنسانوية مصطلحا دالًا على مجموعة من المواقف النظرية المختلفة التي برزت من تآزر مجموعة من الرؤى التي طرحها باحثون من تخصصات مختلفة، تشمل العلوم والتكنولوجيا والدراسات الأدبية والنظرية النقدية وعلم الاجتماع ودراسات الاتصال.

ومع هذا المأزق الوجودي لطبيعة الإنسان ولحقيقته، فقد نشأت ما بعد الإنسانوية للتأكيد على أننا بحاجة إلى مزيد من (الإنسانية)، أكثر من أي وقت مضى، لتحدي سلطة الشركات العالمية التي استحوذت على الثروة بشكل كبير، ودمرت الديموقراطية، ولتجنب كارثة حرب الجميع ضد الجميع، حيث إن التدمير البيئي العالمي يدمر ظروف الحضارة[١٢]، خاصة بعد التطور التكنولوجي الكبير، والذي جعل الإنسان يظن أنه حقق أخيرا لنفسه السيطرة على الحياة.

تُعدّ ما بعد الإنسانوية من هذه الجهة مراجعة لكل أفكار ومفاهيم الخطاب الفلسفي الغربي المتعلّق بالإنسان، إلى نهاية القرن العشرين، وتحاول من خلال هذه المراجعة تفكيك المفاهيم الرئيسية لهذه الفلسفة (الإنسانوية) وفي صدارتها مفهوم الإنسان نفسه، بعدّه كائنًا مسيطرًا، ومن ثم إظهار أثر العوامل التي أدت إلى تدهور الإنسانية (الوضع الإنساني)، من خلال مجموعة القضايا الأساسية التي تهيمن بحضورها الفكري والنقدي على الألفية الجديدة مثل قضايا الجنوسة وقضايا البيئة وخراب الأرض.

وفي داخل هذا الإطار تبرز الترعتان الأساسيتان فيما بعد الإنسانوية؛ متضمنة (بعدها النقدي الخاص)؛ حيث تراجع كل فرضيات الثقافة الغربية الحديثة القائمة على مركزية الإنسان والتي تشير إلى قداسة الإنسان في الكون من واقع كونه الكائن المفضّل حسب الرواية التوراتية الغربية[١٣].

ولذلك فقد انبنى النقد ما بعد الحداثي الذي تنبثق منه ما بعد الإنسانوية، على "موت الإنسان والعمل على التحرر من وهم الإنسان الإنساني؛ أي الإنسان الواعي الفاعل المبدع"[١٤]، انطلاقا من أن الترعة الإنسانية في الخطاب الفلسفي للحضارة الأوربية، ليس أكثر من وهم ميتافيزيقي لإخفاء أوهام الإنسان عن نفسه[١٥].

وعلى هذا الأساس تظهر الأبعاد الأساسية لترعتي ما بعد الإنسانوية: ما بعد الإنسانوية التقنية، وما بعد الإنسانوية الكائنية. وكلتاهما تبحثان في موقع الإنسان من الوجود وهويّته، غيّر أن ما بعد الإنسانوية التقنية تبحث في مصير الإنسان من خلال وضعه المرتبط بالتقنية، في اللحظة الحالية، وفي المستقبل القريب، وهي تقترح أن تكون الرؤية السايبورجية مركز المعالجة في مسألة ما بعد الإنسانوية، "بما يتيح المجال لإمكانيات بحث القضية بعيدا عن التقيّد بحدود الجسد الحيوي من خلال الواقع الحاسوبي الافتراضي، بالإضافة إلى تقنية النانو، والهندسة الجينية، والميكانيكا البيولوجية"[١٦].

ولقد كانت "دونا هاراوي" صاحبة السبق في طرح هذه الرؤية، في بيانها عن السايبورج، وقد تناولت فيه قضايا وموضوعات كثيرة، معروضة من وجهة نظر النقد النسوي الذي تُعد هاراوي من أعلامه. تناولت هاراوي السايبروج باعتباره كائن سايبرنيتيكي هجين من الآلة والكائن الحيّ، مخلوق من الواقع الاجتماعي، وهو بهذه الصفة يمثّل خبرة وتخييلا للواقع الاجتماعي، وصانعا في الوقت نفسه لهذا الواقع، ومحددا لمفهوم الإنسان[١٧].

وعلاقة السايبورج بالتكنولوجيا في هذا الوضع الاجتماعي يمثّل نقيضا لمفهوم المجتمع التقليدي القائم على الأسرة، ومن ثم يسقط في ضوء هذا المفهوم (الآلي) أو السايبورجي التمييز التقليدي بين الإنسان والحيوان، كما تسقط التمييزات والاختلافات بين الطبيعي والصناعي، العقل والجسد، والتطور الذاتي والتصميم الخارجي[١٨].

وعلى هذا النحو، ومن منظور ما بعد الإنسانوية، تتفكك الثنائيات التقليدية، سواء في الطبيعة أو في الوضع السياسي العام للمجتمع، أو في وضع المرأة وتأثير مفهوم "الجنسانية" لا على المرأة وحدها، بل على الكائنات جميعا، بما فيها الآلة، وتأثير ذلك كله على الهوية الإنسانية والهويات الاجتماعية[١٩]. وتتجلى كل هذه التأثيرات لمفهوم السايبورج في روايات الخيال العلمي، التي اتخذت منها هاراوي نموذجًا لكشف وعي السايبورج المتخلّل في تعبير هذه الروايات وفي قيمها الثقافية المضمرة، حيث تجسّد هذه الروايات رغبة المجتمع وأفراده في المهام البطولية لتخريب معقولية الثقافة الغربية التقليدية[٢٠].

وكما لاحظ بعض الباحثين فقد جمعت هاراوي في عملها هذا بين عدد من التخصصات: الإنسانيات والفيزياء والصناعة والخيال العلمي، وجعلت من نموذج السايبورج أداة مفاهيمية لإعادة التفكير في العلاقة بين الإنسان والتنكولوجيا بشكل عام، والآلة

بشكل خاص، معتبرة أن نموذج السايبورج يمكن أن يقدم لنا "مخرجا من متاهة الثنائيات التي طالما قيّدتنا في فهم ذواتنا وعلاقاتنا مع الآخرين"[٢١].

وفي المقابل، فقد سعت ما بعد الإنسانوية الكائنية إلى موضعة الإنسان في النظام البيئي، واستكشاف حدود التمايز بين الإنسان وغيره من الكائنات، بتوسيع مسألة العلاقة بين الإنسان والحيوان على نحو خاص، وهو ما قدمه دريدا في مساءلته للتراث الفلسفي الأوربي المتعلّق بفكرة تفوّق الإنسان واكتسابه السيطرة على الكائنات والكون من حق إلهي متأصل منذ خلق آدم[٢٢].

وقد اعتمد "دريدا" في مناقشته لمسألة العلاقة بين الإنسان والحيوان، من خلال كتابه "الحيوان الذي أكونه" على تراث سلفه الأوربي ممن ذهب إلى رفض فكرة تفوّق الإنسان وهيمنته على الكائنات الأخرى، خاصة ما عرضه "مونتين" الفرنسي في مشروعه الفكري، حين تساءل عن طبيعة علاقته بقطته؟ وقد وسّع دريدا هذا التساؤل، ليشمل كل الحيوانات، متأملا إحساسه بالخجل أمام نظرة قطته لجسده، ومستنتجا من ذلك غموض الدلالة الفعلية لما يعنيه (أنا/ ما) الدالتين على هويّتين متميّزتين في الفكر اللغوي التقليدي (الإنسان في مقابل الحيوان أو غير الإنساني بشكل عام)، ومسقطا بذلك- على طريقة دريدا في تفكيك مدلولات الألفاظ- الطابع المقدّس للإنسان بوصفه الكائن المهيمن على الأرض[٢٣].

إن تفكيك مركزية الإنسان تتطلب تفكيك جميع الأفكار المتعلقة بالتمييز بين حياة الإنسان وحياة الكائنات الأخرى، ومن ثم تقلل هذه الحركة التفكيكية من تفوق الأنواع.[٢٤]. ولذلك تركز الحالة ما بعد الإنسانوية على الطريقة التي نفكر بها في الجنس البشري وكيانه و وجوده على الكوكب بل وعلاقته بسكانه، ما يثير العديد من الأسئلة حول الهويات المشتركة للبشر التي ازدادات تعقيداً تحت تأثير العلوم والسياسة[٢٥].

وإذا كان تاريخ روايات الخيال العلمي أقدم في الظهور من فكرة ما بعد الإنسانوية ومذهبها، إذ ازدهرت طيلة القرن العشرين، وعلى نحو خاص في النصف الثاني منه[٢٦]، فإن روايات وأفلام الخيال العلمي تمثّل محتوى عميقا لأفكار وقضايا ما بعد الإنسانوية[٢٧]؛ إذ تعكس هذه الروايات مستقبل الإنسان في علاقته بالتكنولوجيا في تمثيلات متنوعة لأفكار ومفاهيم مابعد الإنسانوية، وعلى نحو خاص رؤية المجتمع في ظل سيطرة الآلة[٢٨].

وبالتالي لا يمكن أن نغفل اعتماد فكرة وفلسفة ما بعد الإنسانوية على الخيال في تلك الروايات، بعد أن كان الخيال نفسه مصدر الإلهام الأول لعلماء الهندسة والتكنولوجيا والبيوجزيئية في تحقيق حلم الإنسان اليوتوبي بتفوقه على عجزه الإنساني في مقابل المرض والشيخوخة، إلى جانب عجزه في مواجهة طغيان الطبيعة[٢٩].

وأيا يكن الاتجاه الفلسفي الذي يؤثّر في هذه الروايات، فإن ما بعد الإنسانوية باتجاهاتها المختلفة تبقى هي الأساس الذي تنبني عليه القيم الثقافية العاملة في قيمها المضمرة، وهو الأمر الذي سأتناوله في هذه الدراسة.

١ – الإنساني واللا إنساني

عرض ملف المستقبل تجليات حالة الإنسان في علاقته مع غير الإنساني، من خلال علاقته مع الآلة التي حملت طابع صراع مخابراتي، يمحو المسافات بين الإنساني واللاإنساني، وهو صراع اعتمد على استخدام أجهزة متطورة في المستقبل، ويشير في الوقت نفسه إلى تطور تكنولوجي وهو ما انعكس على لغة السرد التي تتعامل مع الآلات بوصفها أجساداً شبه إنسانية، تترجم الصراع القائم خارج دوائرها الالكترونية:

"كان ينتظر إجابة دقيقة للغاية بالأرقام والأسانيد، إلا أنه فوجئ بالجهاز الثاني يقول: معذرة.. لا يمكن أن أخون زميل. تراجع (محمود) في ذعر حتى ارتطم بمقعده فسقط أرضا، ثم صاح في فزع: رباه لقد حدث ما ظنه العلماء يوما مستحيلا، لقد تمردت علينا العقول الآلية التي صنعناها بأيدينا"[٣٠].

وتمرد العقول الآلية في هذه الفقرة لا يعني فحسب عدم استجابة جهاز آلي صنعه الإنسان للإنسان نفسه، وإنما يعني أن هذه الآلات أصبحت كائنات تفكر وتحس، لدرجة أنها تدرك على نحو ما قيمة الخيانة وما تعنيه بالنسبة لكائن يرتبط شعوريا بآلة مماثلة، وهو ما أكدته الرواية في فقرات تالية، حين كان (نور) يناقش مع قائده الأعلى فكرة أن تتمرّد الآلات وأن تتصرف ككائنات مستقلة: "لقد بدأ الأمر في السابعة والنصف من صباح اليوم، حيث بدأت آلات الكومبيوتر في الاعتراض على الأوامر الموجهة إليها من العاملين" [٣١].

وهي مناقشة تقرّ بالاستحالة النظرية لتحقق استقلالية الآلات: "ولكن تمرد العقول الالكترونية أمر مستحيل يا سيدي، إنها مجرد آلات مفكرة صنعها الإنسان، وهي خالية من المشاعر تماما" [٣٢]. لكن الخلوّ من المشاعر أمر مشكوك في صحته أيضا، فبعد أن امتلكت هذه الآلات القدرة على التفكير بوصفها منظومة مترابطة متكاملة، تخضع لسيطرة عقل واحد مركزي " تماما كما ترتبط خلايا المخ البشري بعضها ببعض" [٣٣]، أصبح من المنطقي أن تتطور علاقتها ببعضها لتصبح أشبه بالإنسان في قدرتها على الإحساس بما حولها، وإدراك وجودها ككائنات مستقلة. وهذا ما استغلته السلسلة لتجسيد حلم الذكاء الاصطناعي وعكس الخوف من آثاره في مرآة سرده، بطريقة تبدو مبالغة في بعض الأحيان، فهي لا تكتفي بكونها تفكر أو تشعر بالملل والضجر من سيطرة الإنسان، بل وتصرخ تعبيرا عن غضبها من هيمنة الإنسان على وجودها:

"واتسعت عينا (سامي) بدهشة، ثم اندفع إلى الشاشات العديدة التي تملأ الردهة الواسعة خلفهما، أسرع (نور) خلفه، وسرعان ما توقف مذهولًا، الآلات كلها تصرخ والشاشات كلها بيضاء، وكأن مسًا من الجنون أصابها. أسرع (نور) بالنظر إلى ساعة يده الذرية، ولاحظ أنها أيضا بيضاء.. إذن فهناك شيء ما.. قوة ما تصيب كل الآلات في هذه المنطقة بالشلل، كان الدكتور (سامي) يجرى هنا وهناك، محاولًا إنقاذ الموقف، عندما توقف الأزيز فجأة، وعادت جميع الأجهزة للعمل بصورة طبيعية.. " [٣٤].

ورغم التعبير المجازي الواضح في العبارة، إلا أن دلالتها قريبة من الحقيقة في منظور الخيال العلمي، فقد أراد المؤلف بطريقة ما التأكيد على الحس الإنساني الذي تتمتع به هذه الآلات، تمهيدا للتأكيد على أنها تشارك الإنسان حياته الطبيعية، في ضوء تنبؤات

العلم نفسها وتقدم أبحاث الذكاء الاصطناعي التي اعتمد المؤلف على إرهاصاتها في بناء حبكة روايات السلسلة [٣٥]. وعلى هذا النحو نلاحظ أن الآلات تمتلك صفات إنسانية، يصيبها الألم فتصرخ، والمرض فتُشلّ، وقبل ذلك تفقد لونها، فتصبح بيضاء، كأنها تبهت من المرض الذي أصابها. وهو مرض يشي بصراع خفي، على المستوى الإنساني واللا إنساني، فوراءه قوى مخابراتية تسعى إلى سرقة جهود علماء مصريين، ومعرفة سر الوقود الأميني. وهو الصراع الذي تشارك فيه الآلات بحضورها القوي، وقد كانت في كثير من المناسبات هي الأداة التي يعتمد عليها الإنسان في تحقيق أغراضه.

ومن ثم فإن التطور الطبيعي للآلات أن تقف أمام الإنسان بوصفها كائنات مستقلة، تشعر وتفكر، وتتخذ قراراتها بنفسها. وهو الموضوع الذي يبرز بوضوح في أكثر من مغامرة من مغامرات هذه السلسلة، منها العقول المعدنية، الرواية التي تجعل من الذكاء الاصطناعي محوراً للصراع في أحداثها. ففكرة الرواية كلها تقوم على تمرد الآلات– الكومبيوتر– فهي ترفض الانصياع للأوامر، وتعلن بوضوح عن حضور شخصيتها المستقلة، وتظهر سلوكًا بشريًا حين ترد على طلب محمود أحد أبطال الفريق:

"ثم استدار مستعدًا لإضافة الرقم إلى معادلاته على الكومبيوتر الآخر، ولكنه تراجع بحدة عندما فوجئ بالصوت المعدني المألوف للكومبيوتر الناطق يقول: – لست أرغب في إجابة هذا السؤال" [٣٦].

وتستمر المغامرة على هذا النحو، حتى يظهر في النهاية أن الأمر يقوم على خدعة عالم مجنون، يحاول من خلال قدراته المعرفية وبرمجة أجهزة الكومبيوتر السيطرة على مقدرات الدولة [٣٧]. ومن خلال حلّ لغز المغامرة- باعتبارها خدعة تكنولوجية، تثير المخاوف، وتشير إلى ما يمكن أن يؤدي إليه الذكاء الاصطناعي من تحكم في حياة البشر- تطرح الرواية سؤالها المركزي على لسان (نور) الذي يشير أيضا إلى تداخل الهويّات، بين الإنساني واللا إنساني:

"ولقد تأكدت من ذلك عندما أخبرت الكومبيوتر الأم أن الدولة قد وافقت على مطالبه. ولما لم يكن باستطاعته التمييز بين الصدق والخداع، فقد بدأ في الحال في سرد البرنامج المعدّ لخطة الموافقة، فأعلن أنه سيتخذ جلال العالم العبقريّ الشرير معاونًا له"[٣٨].

ونتيجة تداخل البشري واللا بشري يصبح الصراع صراعَ العقول الطبيعية، والعقول المزودة بالذكاء الاصطناعي، وهو ما يجعل من وجود كل هذه الآلات في حياة الإنسان مشوّهًا لمعنى الإنسانية أو مخففًا لوجودها في الطبيعة، رغم أن هذه الآلات نفسها تُستخدم في إصلاح تشوّهات الإنسان، على ما يشير السرد في رواية اختفاء صاروخ، حيث يعمل التطور التكنولوجي على إعادة صورة الإنسان إلى حالته الأصلية[٣٩].

ويمكن أن نلاحظ هنا أن النسق السطحي أو النسق الظاهر الذي تدور حوله فكرة السلسلة تكمن في الصراع المخابراتي الذي يغلّف كثيرا من هذه المغامرات، لكنها في حقيقة الأمر تحمل نسقا مضمرًا، يعبر عمّا تشير إليه ما بعد الإنسانوية، حيث صراع المال واختلاط الاقتصاد بالطمع، على ما يشير السرد أيضا في نهاية مغامرة أشعة الموت:

"وابتسم (نور) وأجابه: كان هذا هدفاً ذكياً يا عزيزي الطبيب، فالإفراج عن هؤلاء المجرمين برغم خطورتهم يدل على مـــدى فزع الحكومات من الجهاز الذي يمتلكه عبد الستار، وعلى استعدادها لإعطاء المزيد، كما أنه يضمن له ولاء هؤلاء المجرمين، وبذلك يمتلك القوة البشرية والتكنولوجية معاً" [٤٠]:

ومن ثم، يظل تداخل الآلة في حياة الإنسان باعتبارها أدوات وبواعث، في الوقت نفسه يعتمد عليها الإنسان في تحقيق مآربه، سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة، وسواء أكان الصراع صراعَ عقول ذكية أم صراع مخابرات، يسعى وراء التكنولوجيا المتقدمة، وتوظيفها في تحقيق التفوق المادي والمعنوي.

٢ – الإنسان والمجتمع

ومن جهة أخرى، تبرز في هذه الروايات طبيعة الإنسان والمجتمع في مستقبل ما بعد الإنسانوية، على نحو ما قدمته رواية الخارقون، حيث تقع الأحداث بين الوهم الإنساني الذي يسعى لحلم السوبرمان والحقيقة؛ اعتماداً على مجموعة من المبادئ العلمية التي يبني عليها المؤلف تخيّلات المستقبل، وتظهر الإنسان في صورة أشبه بالآلة، سعيًا منه إلى حلم السوبرمان.

وفي خضم هذا المسعى تبرز التعارضات الجديدة المرتبطة بهذا الحلم: الإنسان في مقابل الآلة، الإرادة في مقابل الخضوع، الحرية في مقابل العبودية، العقل في مقابل الجنون، الواقع في مقابل الخيال، الرغبة في حياة المستقبل في مقابل الحنين إلى الماضي. ويمكن أن نلحظ أن هذه الثنائيات ترتبط بتمثّلات الذات الإنسانية، وكأنها انعكاس لصورة المستقبل:

"انظر إلى نشوى يا نور، إنها تشعر بسعادة جمة، لأننا نتزه على أقدامنا هذه المرة. ابتسم نور وهو يقول: صدقيني يا عزيزتي، أنا أيضا أشعر بسعادة مماثلة، فالتطور التكنولوجي يؤدي إلى التكاسل والخمول، فكل شيء في القرن الحادي والعشرين، تقوم به الآلات، والإنسان لا يبذل إلا أقل جهد ممكن، ولقد كدت أنسى النزهات الراجلة، من شدة انهماكي في العمل"[٤١].

إن فكرة أن تقوم الآلات بكل العمل فكرة مثالية، تعني في ظاهرها أن الإنسان لم يعد مضطراً إلى العمل بيديه أو بذل الجهد الشديد لتحقيق أحلامه. غير أن هذه الفكرة في جوهرها تكاد أن تكون أقرب إلى الخيال، لأن عالم الخيال أيضًا يحتاج إلى جهد للحفاظ على مكتسباته، بل إنه مضطرٌ إلى بذل الجهد الشديد للحفاظ على حياته نفسها في مقابل الأخطار التي يصنعها وجود هذه الآلات أو التقنيات في حياته: "عندما فكرت في أن العقار يهبط بنسبة الذكاء كثيرا"[٤٢].

إن تحكم الآلات في حياة الإنسان لا يفقده متعة العمل اليدوي فحسب، ولا يعرّضه لفقد مهاراته العقلية أيضا، وإنما يعرّضه لفقدان حريّته نفسها، بخضوعه لتحكم هذه الآلات، بصورة شبه كاملة، حتى تكاد تشكّل بنفسها هويّة مستقلة، وعالما موازيًا لحياة الإنسان:

"بعد انتشار استخدام آلات الكومبيوتر، في العشر سنوات الأخيرة من القرن العشرين، أدت حتمية التطور إلى وجود ما يُسمى بالخلية الأم، وهو نظام يعتمد على ربط كل أجهزة الكومبيوتر في الدولة، في جميع المجالات بجهاز واحد قوي، يضم أجهزة التحكم الرئيسية، ويسمى بالخلية الأم، وهذا يؤدي بالتبعية إلى ربط جميع أجهزة الكومبيوتر بعضها ببعض"[٤٣].

وهذا التحكم التام للآلة في حياة الإنسان، لا يفقده مهاراته وقدراته فحسب، وإنما يفقده أيضا القدرة على اتخاذ القرارات المصيرية، خوفًا من انهيار عالمه الذي بناه على وجود هذه الأجهزة :

"وهل تظن أنه في إمكاننا فصل كل الأجهزة، عدا تلك التابعة لوزارة الدفاع؟ إننا على العكس سنكون قد تحدينا الخلية الأم، وهي تملك كل أجهزتنا القتالية، سيكون الأمر بمثابة الانتحار" [٤٤].

ومن ثم، يغدو الإنسان في هذا الوضع، أشبه بالعبد الذي يخضع لسيّده الآلة، رغم أنه هو صانع هذه الآلة وسيّدها الأول: "ثم نهض من مقعده بحركة حادة، وجمد بصره في نقطة مجهولة، وهو يردد في آلية: مهما كانت العقبات، مهما كانت العقبات"[٤٥]. والمعادلة الصعبة التي يجد الإنسان نفسه فيها، تتلخص في القوة المفرطة في مقابل الضعف المفرط، أو بمعنى آخر: السوبرمان في مقابل الإرادة المسلوبة.

وأمام هذا التحكم التام للآلة في حياة الإنسان، تبقى حكمة العقل وحدها القادرة على إنقاذ العالم من جنون العقل أيضًا، ومن فقدان السيطرة على الآلة التي صنعها الإنسان بيديه، سواءً أكانت تلك الآلة أجهزة كومبيوتر تخرج عن السيطرة، أو أجهزة إنسانية تحاكي قوة الآلة ونظامها في صورة السوبرمان: "أومأ (نور) برأسه، وغمغم: هذا عجيب!! الأجساد التي صنعها إدمون ٩ للتدمير، كانت السبب الرئيسي في نجاتنا"[٤٦].

ومن ثم يبقى السؤال عن حدود العلاقة بين الإنسان والآلة، وحدود الطبيعي والصناعي، في هذا العالم الجديد، عالم القوة والآلة والعقل الذي يتماس مع الجنون، ويكاد يتجاوزه بطموحه غير المعقول.

٣ – الهويات المشوهة وثنائية: الطبيعي الصناعي

إن من الملاحظ في هذه المغامرات التي تحويها السلسلة أنها تعتمد على فكرة وجود أخطاء بشرية ناتجة وجود تشوّهات في نفسية الإنسان الذي يرتكب مثل تلك الأخطاء، والبواعث الأساسية وراءها الشعور بالنقص، أو نتيجة الاختلاف عن المحيط الإنساني، الأمر الذي جعل هذه السلسلة حافلة بعدد كبير من الأعداء الإنسانيين الذين فقدوا معنى الإنسانية بسبب سعيهم لحلم وحيد، هو السيطرة على العالم، وإثبات القوة الشخصية في مواجهة الآخرين. وعلى هذا الأساس ظهر (التنمّر) الذي يؤدي إلى تشويه الشخصية في أشعة الموت[٤٧]:

"في ردهة واسعة بداخل فيلا منعزلة في منطقة الهرم، جلس خمسة أشخاص كانوا في حالة من التوتر والقلق، أهدؤهم قزم قبيح الوجه يجلس أمام شاشة التليفزيون يتابع فيلماً مجسماً، أما أضخمهم جسماً فكان أكثرهم توتراً، وقال وهو ينظر في ساعته:

– لم يعد باقياً سوى خمس عشرة ساعة، و لم يستجب أحد للإنذار، تبا لهم جميعاً!!

أجابه (القزم) بهدوء:

– هل نسيت أوامر الزعيم؟ الدول دائماً تستجيب في اللحظة الأخيرة.. عليك بالصبر.

قفز القزم وصفعه وهو يسب ساخطاً ويقول:

– أيها الغبي، ستؤدي إلى القبض علينا جميعاً، لن أعود إلى سجن القمر مرة ثانية.. أرسل إشارة عاجلة إلى الزعيم في إدارة البحث العلمي، وحاول إنذار الوحش وسنارة في الهرم.. أسرع".

إن فكرة وجود الإنسان غير السوي الذي يستغل القوة من الأنساق الأساسية التي تعتمد عليها المغامرات في هذه السلسة، وهي تهدف إلى إبراز التشوّه في حياة الإنسان، ومن ثم فقد تكرر ظهور الأعداء المجانين الذين غرهم العلم والتقدم ما جعلهم يخطئون في تقدير الأحكام، رغم ما يمتلكونه من قوة فعلية، تتمثّل في مكانتهم العلمية أو مكانتهم الاجتماعية والوظيفية، على نحو ما ظهر في الخارقون، حيث عمل الدكتور إدمون غبريال على اختراع عقار يمكنه من أمرين: الأول- تحويل الإنسان إلى ما يشبه السوبرمان في قوته وصلابته، والثاني- السيطرة على أولئك المحوّلين وتوجيههم لتحقيق أغراضه الشخصية في السيطرة على العالم:

" – من أنت؟ اتسعت ابتسامة الرجل، وقال في هدوء:

– أنا (إدمون غبريال)، الدكتور (إدمون غبريال) يا فتى، صانع كل هؤلاء الرجال الخارقين، أنا صانع القوة..

فالدكتور (إدمون) عالم لمع اسمه منذ عشر سنوات، في منتصف التسعينات من القرن العشرين، حينما أعلن عن نظريته في صنع (سوبرمان) العصر الحديث.. "[٤٨].

إن فكرة تشويه الهويّات النفسية تعني أن للمستقبل مخاطره المباشرة على الإنسان، وهي تأتي من جهة الإنسان نفسه؛ حيث يغدو التقدم العلمي والتكنولوجي سببًا لفقدان الإنسان الإحساس بهويّته الحقيقية، خاصة مع الغرور العلمي الذي يصوّر له قدرته على تجاوز طبيعته البشرية، دون الاعتراف بعجزه أمام قوى الطبيعة، أو أمام القوى الغامضة التي يواجهها في مسيرته نحو تعويض إحساسه بالنقص. وهو الأمر الذي يفرز بدوره صراعًا بين النفوس السوية التي ترغب في الحفاظ على استقرار العالم (الطبيعة) من جهة، والنفوس المشوّهة التي تريد الإخلال بميزان القوى الطبيعية لصالح بعض المطامع أو الأغراض الشخصية التي تسعى لتحقيقها.

وهذا يفسر احتفال هذه السلسلة بعدد كبير من المغامرات التي تقوم على فكرة تشويه الطبيعة الإنسانية، باعتبارها الباعث الأساسي لكل ما يحدث من دمار من قبل أولئك، وكأنما هذا الدمار الذي تحدثه تلك الكائنات رسالة ضمنية؛ لرفض العالم القديم المستقر، والرغبة في إنشاء عالم جديد من العدم.

ولذلك فقد يكون من اللافت في هذه المغامرات أنها تبدأ دائما بسلسلة من أحداث العنف الذي يؤدي إلى سقوط عدد كبير من الضحايا، قبل أن تتقدم الأحداث، ويكشف فريق نور ما وراءها من أهداف، والمشاركين في صناعتها، على نحو ما يحدث في (الخارقون) حين تتوالى مجموعة من أحداث العنف غير المبرّر: "واتسعت عينا (محمود) في رعب، ثم شهق في ألم، حينما قذف به (طارق) إلى الحائط، فارتطم في قوة، ثم سقط فاقد الوعي، وأدار (طارق) عينيه إلى باقي أفراد الفريق وهو يردد في شراسة عجيبة: مهما كانت العقبات"[٤٩].

وبعد سلسلة من المغامرات يتضح أن وراء هذه الأحداث رجل يحلم بالقوة، من خلال صنع رجال خارقين، أشبه بالسوبرمان، ويهدف من وراء ذلك إلى تحقيق سيطرته على العالم، تعويضًا عن إحساسه بالنقص في شخصيته. ومن ثم، فإن ناتج مثل هذه المحاولات المتكررة للسيطرة على العالم مزيدٌ من الدمار، ومزيدٌ من محاولات إيقاف التغيير الذي يسعى أفراد أو جماعات لفرضه على العالم، سواء أكان الأمر بدافع شخصي، أم كان بدافع قوى أكبر على مستوى المخابرات والدول. وهي المحاولات التي يستمر معها التصنيف: طبيعي/ مجنون، إنساني/ غير إنساني، الحياة/ الموت، في سلسلة لا تنتهي من التصنيفات (التمييزية)، التي يحكمها العقل أحيانًا، وتحكمها مبادئ المستقبل المجهول في أحايين أخرى.

٤. تحوّل المجتمع وتبديل الهويات

ومن ثم، يظهر تبديل الهويات باعتباره إفرازًا طبيعيًا لمجتمع متحوّل، تأخذ فيه صورة الإنسان شكلًا مختلفًا؛ إما عن طريق لون الجسد، أو عن طريق استبدال الإنسان نفسه بهوية آلية. وقد أخذت فكرة تبديل الهويات حيّزًا واضحًا في ملف المستقبل، فكانت موضوعًا للمغامرة في ثلاث قصص متتابعة مرتبطة؛ الموت الأزرق، السماء المظلمة، من وراء النجوم. والروايات الثلاثة تقوم على فكرة الإعداد لغزو الأرض من قبل حضارة متطورة، تستغل ذكاء بعض البشر في تحويل الأرض إلى كوكب مظلم، يناسب بشرتهم الزرقاء. وهي تفعل ذلك عن طريق السيطرة على العقول من جهة، واستغلال العلم في صنع عدسة ضخمة تحجب ضوء الشمس، ليتحوّل كل شيء في الأرض إلى اللون الأزرق[٥٠]، ويصبح المجتمع أمام ثلاثة وجوه أو ثلاث هويّات: رجال آليين يخدمون الإنسان، ورجال ذوي وجوه زرقاء، وبشر خاضعين لأصحاب البشرة الزرقاء[٥١].

ومن ثم، فإن فكرة تبديل الهويات لا تقف عند حدود اختلاط الصور والأشكال الحية، حتى لو كان في بعضها خدعة أو استغلالًا لإمكانيات العلم المتطورة، وإنما يصل الأمر إلى التساؤل عن حدود الحياة والموت نفسه، فقد أصبح ما يعدّ سببًا للحياة لصورة من تلك الصور– الإنسان في بيئته الطبيعية– سببًا للموت في الصورة الأخرى، المتلوّنة:

" هتف نور وهو يتحسس المعدن العجيب الذي صُنع منه إطار العدسة الخارجي: بل هو عدسة بالفعل، عدسة عملاقة، يمكنها مع بعض دراسات المسار والسرعة تغطية نور الشمس عن الأرض مدى الحياة. غمغم (صبري) في شرود: حياة من؟"[٥٢].

وبالتالي، فإن فكرة الغزو التي تقوم عليها المغامرات الثلاثة، لا تعني غزوا فضائيا لكوكب الأرض من قبل كائنات ذوي بشرة زرقاء فحسب، وإنما تعني- وهذا هو الأخطر- السيطرة على عقول البشر، باستغلال إمكانيات العلم نفسها، في معرفة طبيعة النفس البشرية، من خلال التنويم المغناطيسي أو الاحتواء العقلي[٥٣]، أو باستغلال إمكانيات العلم ذاتها في صنع شاشة خضراء للخداع البصري[٥٤]، بكل ما هو معروف عن ذلك في شاشة السينما. ومن ثم يغدو السؤال عن الهوية البشرية وعلاقتها بقوى الإدراك في مجتمع تسيطر عليه هويّات متعددة متبدلة هو السؤال المركزي الذي تطرحه هذه الروايات في بعض جوانبها، باعتباره انعكاسًا لمجتمع ما بعد الإنسانوية.

ومن ثم، فقد برزت في هذه السلسلة الهوية المحاكية للطبيعة، وهي تعبر عن إدراك الإنسان لأهمية الطبيعة بالنسبة له من جهة، وعن القدرات الكبيرة التي يمكن أن يكتسبها إذا ما تعلّم من الطبيعة أساليبها، وحاول تقليدها في طرق معيشته؛ وخاصة في توظيف قدراتها لزيادة قدرته. أما قوة الطبيعة فقد ظهرت في عدة مواضع من هذه السلسلة، متمثلة في الشمس ومدى تأثيرها على حياة الإنسان، فكانت موضوع المغامرة في الشمس الزرقاء، حيث المحاولة لفهم قوة ذلك النجم الأم لكوكبنا الأرض:

"جرى العمل على قدم وساق، في قاعدة الفضاء المصرية (نصر)، استعدادًا لإطلاق المكوك الفضائي (نسر – ٢٠)، في رحلة مثيرة، تختم سلسلة من الرحلات المشابهة، التي استغرقت عامين متتالين، في إطار مشروع فضائي ضخم، أمسكت (مصر) بزمام مبادرته، ألا وهي أول دراسة شاملة كاملة، للنجم الأعظم، الذي تدين له الأرض بضوء الحياة ودفئها"[٥٥].

وتظهر هذه القوة في أساليب الحياة التي تتخذها كائنات الأرض، من قدرة على الاختفاء بمحاكاة بيئتها، وقدرة على الطيران بأجنحة مختلفة الأشكال والألوان، بالإضافة إلى قدرة بعضها على حمل ضعف وزنها، أو نقله بسهولة ويسر، أو صنع أدوات تستخدمها في الوصول لحاجاتها، كقرود الشامبنزي[٥٦]، وهو ما يجعل تلك الكائنات جميعًا نموذجًا لمحاكاة الإنسان لكائنات الطبيعة؛ سعيًا لتحقيق حلمه القديم بقوة السوبرمان، على ما يظهر في (نصف آلي):"واتسعت عينا الحارس في رعب هائل، وهو يحدّق في عيني الآلي، لم تكونا عينين آليّتين، وإنما كانتا بشريّتين"[٥٧].

إن فكرة الآلية التي تغلّف حياة الإنسان توشك أن تهدم قيمة الإنسان نفسه[٥٨]، لولا التمسك بالجماعي مقابل الفردي، والعائلة مقابل الأفراد المنعزلين في جزر متفرقة. وهو ما تحرص هذه القصص على ترسيخه من خلال الإشارات المتكررة إلى العمل بروح الجماعة في نطاق العائلة التي يمثلها (نور) وفريقه[٥٩].

وقد تكون فكرة محاكاة الطبيعة والإفادة من طرق معيشتها الطبيعية، والاندماج في عناصرها مفيدة ومغرية، لكنها أيضًا تهدد بجعل الإنسان يفقد فرديّته وحرية إرداته الحقيقية، إذ يتحوّل إلى نسخة متكررة من آلاف النسخ، كما يجعل الإنسان نفسه ينقسم

إلى فئات، بعضها يملك القدرة على الاختفاء، وبعضها يملك القوة الغاشمة، وبعضها يملك القدرة على الطيران. وهي ميزات مدهشة لا ريب، لكنها لا تجتمع في إنسان واحد، إلا إذا كان إنسانًا آليا كاملًا بمعنى الكلمة، أو سايبورغ؛ تحل فيه الأجزاء الآلية "محل بعض الأجهزة والأطراف البشرية، مع إيصالها بالنهايات الطرفية العصبية الحية"[٦٠] وتتفاعل مع الوصلات العصبية للمخ وإشاراته، وتعمل بوصفها أجزاء طبيعية حية.

وهذا يفقد الإنسان إنسانيّته، وإحساسه بالآخرين، فيصبح هدفه الوحيد الحفاظ على فئته ونوعه، وسحق الفئات والأنواع الأخرى، "ليصبح أقوى شخص على سطح الأرض، أو الشخص الذي يمتلك أقوى أسلحة معروفة"[٦١].

ولكن بعد ذلك يبقى السؤال: ماذا لو حقق الإنسان ذلك؟ أي ماذا لو جمع كل أسلحة الأرض، وصار أقوى رجل فيها؟ إن فكرة الاندماج في الطبيعة والاعتراف بقدراتها فكرة في حد ذاتها جيدة، وترسم صورة لعالم ما بعد الإنسان الذي أدرك حجمه الطبيعي في الكون، وأدرك أنه ليس مركز الفعل فيها. وهذه فكرة أساسية فيما بعد الإنسانوية، تنبثق عمّا بعد الحداثة، لكن هذا الإنسان الجديد لا يستطيع الاستغناء عن جماعته ولا يمكن له أن يعيش وحيدًا، منفردًا، بدون الاندماج في بيئته الاجتماعية، قبل البيئة الطبيعية، وإلا فقد مركز الإحساس بهويّته، وصار نسخة من نسخ، تتكرر إلى ما لا نهاية.

الخاتمة

هدفت الدراسة للكشف عن علاقة الواقع بروايات الخيال العلمي وانعكاس فلسفة مابعد الإنسانوية على السرد. وذلك بتتبع تجليات الإنساني وما بعد الإنسانوية في رواية الخيال العلمي العربية، وقد اتخذت الورقة نماذج مختارة من سلسلة روايات ملف المستقبل عينة للتحليل والدراسة، الأمر الذي كشف عن أن هذه السلسلة لا تختلف في تناولها عن روايات الخيال العلمي الغربية، إذ عكست موضوعاتها فلسفة ما بعد الإنسانوية، من خلال موضوعات الخيال العلمي المألوفة: صراع الإنسان والآلة، ومواجهة الغزاة الفضائيين، بالإضافة إلى مواجهة طموح العلماء الذين يسعون للسيطرة على العالم لمصالحهم الشخصية.

وعلى هذا النحو تجلت موضوعات ما بعد الإنسانوية، في هذه الروايات بوصفها إشارات غير مباشرة، مراعية للسياق وللأخلاق العربية، فلم تتعمّق في تبني وجهة نظر ما بعد الإنسانوية التي تتبنى فكرة تحوّل الإنسان في المستقبل إلى صورة هجينة، تختفي فيها الحدود بين الذكر والأنثى، كما تختفي بين الإنسان والآلة، ليسود نوع من السايبورج الذي يتعايش في وجوده مع وجود وحقوق الكائنات الأخرى، بما في ذلك حقوق البيئة والآلة. وبالتالي، فقد تبنّـــى ملف المستقبل بعدًا أخلاقيا، يعكس الهوية العربية، ويؤكد ريادتها المستقبلية للعلوم والتكنولوجيا. وقد ترسّمت السلسلة في ذلك خطوات روايات الخيال العلمي العربية التي سبقتها في هذا التناول، لكنها اختلفت عنها في مخاطبة الشباب، بهدف توعيتهم بمخاطر المستقبل، ونقل ثقافة الحاضر إلى وعيهم، ليكونوا على استعداد لمواجهة احتمالات التغيّر الوشيكة.

ولذلك تميّزت سلسلة ملف المستقبل في تناولها موضوعات الخيال العلمي المتعلّقة بالتكنولوجيا تناولا يتتبع أثر التطور التكنولوجي بعدِّه كيانا ماديا يؤثر على نحو مباشر في المجتمع، مع الحفاظ على أخلاقيات وثقافة الهوية العربية، الأمر الذي جعلها تنجح في

عرض موضوعات ما بعد الإنسانوية بما يبرز قضاياها الرئيسة، متمثّلة في تبدل هوية الإنسان وتشويهها، وتأثير الإنسان على تغيّر طبيعة المناخ والأرض.

ولقد انعكس أثر التكنولوجيا على موضوع السلسلة نفسها، حيث اتخذت من الصراع المخابراتي نسقًا ظاهرًا لموضوع مغامراتها، لكنها في الوقت نفسه عبرت عن نسق مضمر، تجلى في صراع الهويات بين الإنساني والآلة التي أصبحت تهدد مصير الإنسان. ولعل أبرز أثر لهذا الصراع الإنساني مع الآلة يظهر في وجود سايبورج، أو إنسان يتمتع بقوى آلية أكبر من قوى الإنسان الطبيعية، ويحاول بهذه القوة تحقيق سيطرته على العالم لمصالحه الشخصية.

ومع هذا الصراع بين الإنسان والآلة برزت الثنائيات التي تعكس أخطار المستقبل، حين تكون الآلة هي السيّد المتحكّم في حياة الإنسان، فتحول الصراع من مجرد الإنساني واللاإنساني إلى صراع بين الحقيقة والخيال، أو صراع بين الآلة والرجل، وهو صراع يحمل في ثناياه تعارضات هذا المستقبل وأخطاره أيضا، كالصراع بين الحرية والعبودية، والعقل في مقابل الجنون، والإرادة في مقابل الخضوع، وهي جميعها تعني أن صراع الإنسان مع الآلة تحول إلى صراع مع المستقبل (التكنولوجي) يجسد المصير الإنساني المحتمل، ويحمل صورة لما يمكن أن تكون عليه حياة البشر في المستقبل.

إن حلم الإنسان بالمستقبل وتغلّبه على ضعفه الإنساني يحمل في داخله أيضا مخاطر الواقع للوهم الإنساني، حين تسيطر على أحد أفراده أحلام القوة والسيطرة على العالم، سواء باستخدام آلات حديثة تمكنه من قهر أعدائه، أم باستغلال التقدم التكنولوجي في ميدان الجينات الوراثية، بما يمكنه من صنع (إنسان) جديد، يشبه الإنسان في بنيته، لكن قوّته الظاهرة تفوق قوّة الإنسان الطبيعية، وهو الأمر الذي يصحبه تغيير في نفسية هذا الإنسان، لدرجة تشويه معنى الإنسانية، وتخطي حدودها المعروفة، ليصبح الإنسان (المعدل وراثيا) أو المسلّح بأجهزة حديثة (سايبورج) خطرا على حياة الإنسانية كلها وعلى وجودها.

ومع السعي إلى تحقيق حلم الإنسان بالتفوّق يظهر الإنسان وعيه بالطبيعة حيث يدرك أن مركزيّته في الكون ليست مطلقة، وأن أقرب السبل لتحقيق حلمه بالتفوّق يأتي من خلال محاكاة الطبيعة وتعلّم أساليبها في التخفّي، إلى جانب أساليبها في الدفاع والهجوم. لكن هذا الإدارك والسعي إلى تجسيد معناه بتخليق السايبورج يحمل في داخله أيضا خطرا جديدا، ربما لم تعرفه الإنسانية من قبل، حيث يكون التضحية بالذات الفردية والعمل على استنساخ الإنسان لصنع صور لا نهائية من فرديّته هو الثمن. وبالتالي يفقد الإنسان وجوده ككائن عاقل مفكر، ذي هوية فردية واعية، ويصبح مجرد فرد من عائلة كبيرة للكائنات الحية في الطبيعة.

وقد ظهر هذا الصراع بين الفردي والجماعي بصورة أوضح في تلك المغامرات التي دارت حول غزاة فضائيين أو الإنسان الآلي، اللذين يحاولان تحطيم الحضارة الإنسانية، ويفرضان وجودهما الذي يعتمد على محو الحدود بين الذكر والأنثى من جهة، ويهدد الحياة الطبيعية والبيئة في الجهة المقابلة. ففي داخل هذا الصراع تجلّى الحرص على حفظ حياة الجماعة، وحفظ حدود الهويات بين المذكر والمؤنث، لتبقى قيم الجماعة هي المسيطرة، ولتبقى هذه القيم بمثابة الحدود الآمنة التي تحمي الفرد من مغبة التمرّد على جماعته، وتمنعه من الخروج على حدودها.

ولذلك فإن السلسلة تطرح فكرة حماية الجماعة من خلال العمل بروح الجماعة وعدم السماح للفرد بالتسلّط على مقداراتها، رغم أنها في الوقت نفسه تعترف بحق الفرد في الإبداع وفي التعبير عن وجوده من خلال ممارسة مواهبه واستغلالها لصالح الجماعة. وهو المعنى الذي يمكن أن نستخلصه من علاقات العمل والصداقة بين فريق نور العلمي في هذه السلسلة، باعتبارهم أبطالها ونموذج العمل الجماعي المنظّم.

[1] ــ Luke Hortl: (2017) Reading the posthuman: contemporary fiction and critical theory. Diss. Australia, University of Tasmania, p.2.

[٢] ــ أرثر أيزابرجر: ٢٠٠٣، النقد الثقافي ــ تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة وفاء إبراهيم، رمضان بسطويسي، ط الأولى، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ص٣٤.

[3] Dobrodum, Olga, Olga Kyvliuk: (2021) Transhumanism and Posthumanism: Reflection of the Human Civilization Future, Filosofiâ I Kosmologiâ 26.p79

[4] Miah, Andy (2009) A critical history of posthumanism, Medical enhancement and posthumanity,71-94. P.21

[5] Arran Gare: (2021) Against posthumanism: Posthumanism as the world vision of house-slaves, Borderless Philosophy, P.1.

[6] Ian Buchanan (2010) Oxford Dictionary of Critical Theory Critical, Oxford. University Pres, United Kingdom, P.374.

[7] Ross Braidotti, Maria Hlavajova: (2018) Postman Glossary, Bloomsbury Academic, UK, USA, p.439.

[8] Francesca Ferrando: (2013) Posthumanism, transhumanism, antihumanism metahumanism, and new materialisms: Differences and relations, US, Existenz. No. 2, P.29.

[٩] ــ عادل الزهراني: ٢٠٢١، ما بعد الإنسان وما بعد الإنسانوية: مقدمة في المفاهيم والاتجاهات النقدية، ماليزيا، مجلة التجديد، العدد٣٩، ص١٩٤.

[١٠] ــ لويز ويسلنج: ٢٠١٨، الأدب والبيئة ومسالة ما بعد الإنسان، ترجمة عبد الرحمن طعمة، مصر، مجلة فصول، العدد (١٠٢) ص٣٧١.

[١١] ــ عادل الزهراني، مرجع سابق، ص ١٩٥.

[١٢] - نفس المرجع، ص ١.

[١٣] ــ ينظر لويز ويسلنج، مرجع سابق، ص ٣٧٢.

[١٤] ــ نفس المرجع، ص ١٠٦.

[١٥] ــ عبد الرزاق الداوي: ١٩٩٢، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، هيدجر، ليفي ستروس، ميشيل فوكو، ط الأولى، بيروت، دار الطليعة، ص٢٢.

[١٦] ــ لويز ويسلنج، مرجع سابق، ص ٣٧١

[١٧] ــ Donna Haraway: (2016) A cyborg manifesto.US. U of Minnesota press.P.4.

[١٨] ــ دونا هاراوي: (١٩٨٥)، بيان السايبورغ ــ العلم والتكنولوجيا والنسوية الاشتراكية في أواخر القرن العشرين، ترجمة أماني أبو رحمة.ص٤-٥.

[١٩] ــ نفس المرجع، ص ٧ ــ ٣٤.

[٢٠] ــ نفس المرجع، ص ٣٥ ــ ٣٩.

[٢١] ــ عادل الزهراني، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

[٢٢] ــ لويز ويسلنج، مرجع سابق، ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣ .

[٢٣] ــ نفس المصدر، ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣.

[٢٤] ــ روزي بريدوتي:٢٠٢١، ترجمة حنان مظفر، ما بعد الانسان، الكويت، المجلس الوطني الثقافي والفنون والآداب، عالم الفكر، ص ٧٩.

[٢٥] ــ نفس المرجع، ص ١٤.

[٢٦] - شاكر عبد الحميد: ٢٠٠٩، الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي، الكويت، عالم المعرفة، عدد ٣٦٠، ص ١٩١ ــ ٢٠٠.

[٢٧] - فالنتينا إيفاشيفا: ٢٠٠٦، الثورة التكنولوجية والأدب، ترجمة عبد الحميد سليم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٧٦ ــ ١٨٢، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٥.

[٢٨] - كيث بوكر، آن ماري توماس:٢٠١٠، المرجع في روايات الخيال العلمي، ترجمة عاطف يوسف محمود، ط الأولى، مصر، المركز القومي للترجمة، ص ٢١٥ ــ ٢٣٥ .

[٢٩] - دونا هاراوي، ترجمة أماني أبو رحمة، مرجع سابق، ص ٣٤ ــ ٣٩ .

[٣٠] نبيل فاروق، (د.ت)، العقول المعدنية، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر، ص٩.

[٣١] نفس المرجع.

[٣٢] نفس المرجع.

[٣٣] نفس المرجع.

[٣٤] ــ نبيل فاروق، (د.ت)، اختفاء صاروخ، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر، ص ١٥ــ ١٦.

[٣٥] نبيل فاروق، العقول المعدنية، مرجع سابق، ص ١١ ــ ١٧

[٣٦] ــ نبيل فاروق، العقول المعدنية، مرجع سابق، ص٦.

[٣٧] ــ نفس المرجع، ص ٩١ ــ ٩٣ .

[٣٨] ــ نفس المرجع، ص ٩٧.

[٣٩] ــ نبيل فاروق، اختفاء صاروخ، مرجع سابق، ص ٥٣.

[٤٠] ــ نبيل فاروق، (د.ت)، أشعة الموت، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر، ص ١٠٥ ــ ١٠٦.

[٤١] ــ نبيل فاروق، (د.ت)، الخارقون، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر، ص٥.

[٤٢] ــ نفس المرجع، ص ٥٨

[٤٣] ــ نبيل فاروق، العقول المعدنية، مرجع سابق، ص١٥.

[٤٤] ــ نبيل فاروق، العقول المعدنية، مرجع سابق، ص٥٣.

[٤٥] ــ نبيل فاروق، الخارقون، مرجع سابق، ص ١٧.

[٤٦] ــ نبيل فاروق، الخارقون، مرجع سابق، ص ١٠٦.

[٤٧] ــ نبيل فاروق، أشعة الموت، مرجع سابق، ص ٧٩ ــ ٨٠ .

[٤٨] ــ نبيل فاروق، الخارقون، مرجع سابق، ص ٥٠ ــ ٥٣ .

[٤٩] ــ نفس المرجع، ص ١٨، ص ٤٢ ــ ٤٣

[٥٠] ــ نبيل فاروق، (د.ت)، الموت الأزرق، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر، ص ٣٦ ــ ٣٧ ، ٦،٩.

[٥١] ــ نفس المرجع، ص ١١٦ ــ ١١٨ .

[٥٢] ــ نبيل فاروق، (د.ت)، السماء المظلمة، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر، ص ٦٢.

[٥٣] ــ نبيل فاروق، (د.ت)، من وراء النجوم، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر، ص ١٣ ــ ١٥ -١٨.

[٥٤] ــ نفس المرجع، ص ٢٨ ــ ٣٤ .

[٥٥] ــ نبيل فاروق، (د. ت)، الشمس الزرقاء، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر، ص٥.

[٥٦] ــ لويس ويسلنج، مرجع سابق، ص ٣٧٩ ــ ٣٨٠ .

[٥٧] ــ نبيل فاروق، (د. ت)، نصف آلي، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر، ص ١٣.

[٥٨] ــ فالنتينا إيفاشيفا، مرجع سابق، ص ٢١٧.

[٥٩] ــ نبيل فاروق، نصف آلي، مرجع سابق، ص ١٧.

[٦٠] ــ نفس المرجع، ص ١٠٤.

[٦١] ــ نفس المرجع، ص ٧٠.

قائمة المراجع والمصادر

أ. المراجع والمصادر العربية

أرثر أيزابرجر: ٢٠٠٣، النقد الثقافي ــ تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة وفاء إبراهيم، رمضان بسطويسي، ط الأولى، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.

دونا هاراوي: ١٩٨٥، بيان السايبورغ ــ العلم والتكنولوجيا والنسوية الاشتراكية في أواخر القرن العشرين، ترجمة أماني أبو رحمة.

روزي بريدوتي:٢٠٢١، ترجمة حنان مظفر، ما بعد الانسان، الكويت، المجلس الوطني الثقافي والفنون والآداب، عالم الفكر.

شاكر عبد الحميد: ٢٠٠٩، الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي، الكويت، عالم المعرفة، عدد ٣٦٠.

عادل الزهراني: ٢٠٢١، ما بعد الإنسان وما بعد الإنسانوية: مقدمة في المفاهيم والاتجاهات النقدية، ماليزيا، مجلة التجديد، العدد٣٩.

عبد الرزاق الداوي: ١٩٩٢، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، هيدجر، ليفي ستروس، ميشيل فوكو، ط الأولى، بيروت، دار الطليعة.

فالنتينا إيفاشيفا: ٢٠٠٦، الثورة التكنولوجية والأدب، ترجمة عبد الحميد سليم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كيث بوكر، آن ماري توماس:٢٠١٠، المرجع في روايات الخيال العلمي، ترجمة عاطف يوسف محمود، ط الأولى، مصر، المركز القومي للترجمة.

لويز ويسلنج: ٢٠١٨، الأدب والبيئة ومسالة ما بعد الإنسان، ترجمة عبد الرحمن طعمة، مصر، مجلة فصول، العدد (١٠٢).

نبيل فاروق: (د.ت)، اختفاء صاروخ، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر.

نبيل فاروق: (د.ت)، أشعة الموت، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر.

نبيل فاروق: (د.ت)، الخارقون، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر.

نبيل فاروق: (د.ت)، السماء المظلمة، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر.
نبيل فاروق: (د.ت)، الشمس الزرقاء، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر.
نبيل فاروق: (د.ت)، العقول المعدنية، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر.
نبيل فاروق: (د.ت)، الموت الأزرق، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر.
نبيل فاروق: (د، ت)، من وراء النجوم، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر.
نبيل فاروق: (د.ت)، نصف آلي، مصر، العربية الحديثة للطبع والنشر.

ب- المراجع والمصادر الأجنبية

Andy Miah: 2009, A critical history of posthumanism, Medical Enhancement and Posthumanity,71-94.

Arran Gare: 2021, Against posthumanism, Posthumanism as the world vision of house-slaves, Borderless Philosophy. (4).

Dobrodum, Olga, Olga Kyvliu: 2021, Transhumanism and Posthumanism: Reflection of the Human Civilization Future, Filosofiâ I Kosmologiâ, (26).

Donna Haraway: 2016. A cyborg manifesto.US. U of Minnesota press.

Ferrando Francesca: 2013, Posthumanism, transhumanism, antihumanism metahumanism, and new materialisms: Differences and relations, US, Existenz. (2)

Ian Buchanan: 2010, Oxford Dictionary of Critical Theory Critical, Oxford. University Pres, United Kingdom.

Luke Hortl: 2017, Reading the posthuman: contemporary fiction and critical theory. Diss. Australia, University of Tasmania.

Ross Braidotti, Maria Hlavajova: 2018, Posthuman Glossary, UK, USA, Bloomsbury Academic.